Issn:2437-0967 مجلة اللغة الوظيفية
المجلد9،العدد2
2022

صورة الإنسان الجزائري عند إيزابيل إبرهارت

The image of the Algerian man in the writings of Isabelle Eberhardt

د/ عقال فاطمة الزهراء [1](1)

جامعة يحيى فارس بالمدية–الجزائر

aftioumhalla732@gmail.com

تاريخ الإرسال:2022/01/22	تاريخ القبول:2022/12/04	تاريخ النشر:2022/12/30

الملخص

حبها للأهالي ومدافعتها عنهم بشراسة، وصفت إبرهارت العالم المسلم والأهالي أي الأنديجان بصراحة ودون أن تخفي شيئاً، مقدمة بذلك للقارئ كل ما تعرفه عن البيئة التي تعيش فيها فكل ما كتبته لم يكن مجرد أحداث (فبصفتها صحفية ومراسلة لجريدة الأخبار، مكنها من قول الحقيقة التي يلتزم بها كل صحافي)، بلباس رجل عربي تتجول بحرية في أرض لطالما أرادت اكتشافها، وصفها وسردها للأحداث تميز بتعبير قوي فهي لم تختبئ وراء الأوصاف بطريقة بارترون وروندو الكاتبان اللذان عرفا بطريقتهما الجميلة في الكتابة ضمن تيار الجزأرة إلاّ أنهما كانا يتجنبان إضافة المزيد من اللمسات الشخصية التي غالباً ما تقرر طبيعة الخطاب.

الكلمات المفتاحية: إبرهارت– الأهالي–الأنديجان–تيار الجزأرة–مراسلة

الملخص باللغة الأجنبية :

-Abstract:

As lover of the native people and a fiercely defending them, Eberhardt described the muslim world and the people which is the native people frankly and without hiding anything, this introduces to the reader everything she know about the environement in which they live in, everything she wrote was not just events (As a journalist and reporter for the news paper El khaber her to tell the truth that every journalist is abide by), In the clothes of an Arab man she roams freely in a land she has always wanted to discover. Her description and narration of events was disguinshed by a strong expression, as she didn't hide behind the descriptions like Bartron and Rando, the two writers who were know for their beautiful ways of writing within

[1] المؤلف المرسل د/فاطمة الزهراء عقال

the butchery stream. However, they avoided adding the more personal touches that often decide the nature of the speech.

مقدمة:

هناك من الأعلاممن يخلدهم التاريخ، وأسطورة "إيزابيل إبرهارت" هي من بين هؤلاء، عديد من المعاصرين في الجزائر وفرنسا سمعوا عن هذه الكاتبة ولو لمرة واحدة، تلك الآنسة "إبرهارت" الروسية من جنيف والتي تمتعت بسمعة الكاتبة "**الإسلامُ متوسطية**[2]" طبعت تغيرات القرن في المغرب العربي. إذ كانت معروفة من خلال كتاباتها حول الجزائر وإخلاصها للقضية المتمثلة في نصرة **الأنديجينا**[3]، والذي شدّهم في حياة الكاتبة هو ميلها الشديد للتنكر في هيئة رجل و حتّى انتحالها لأسماء ذكورية، لقد كانت فارسا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وامرأة قلَّ ما يجود الزمان بمثلها، إنها كانت امرأة في زيّ رجل، كانت امرأة لم تكن تريد أن تكونها، فارتدت ثياب الرجال لتخفي معالمها، مفاتنها، أنوثتها وتكتم صرخة الجمال فيها. لقد كان خط سيرها في الحياة قصير المدى، لكن خطواتها راسخة، وآثار سيرها عميقة، ففي كل موضع قدم لها على الرمال، نبتت زهرة وأينعت، وانفجرت عينٌ تنضُب ماء الحياة، لذلك لا بد أن نتطرق لجوانب من حياة هذه الكاتبة للتعرف أكثر عن كتاباتها ومغامراتها، فرغم صغر سنها إلاّ أنها تركت آثارا كثيرة، أُعجب بها المفكر الجزائري "مالك بن نبي"، فلقد كانت من بين الذين أثروا في مسار حياته، فكتب عنها: " لقد قرأت مراراً كتاب تلك المرأة المغامرة التي أنهت حياتها في عين الصفراء في ظروف مشؤومة مؤسفة. كنت أبكي وأنا أقرأ ذلك الكتاب المسمى (A l'ombre chaude de l'islam)"في ظلال الإسلام الدافئة"، والذي عرفت فيه شاعرية الإسلام وحنين الصحراء، هذا الكتاب ترك فينا بسبب خصائصه الخيالية تأثيراً عجيباً "[4]. وكتب عنها " محمد الصالح دمبري[5]" يقول: " كصُحُفية شغوفة، وجزائرية متحمسة، انغمست في تحليل الحياة الإنسانية في الجزائر في تلك الفترة، متهمة التمييز الذي تفرضه الشؤون السياسية الاقتصادية الجديدة، والسلب المُخزي والفاضح للسكان الأصليين، أدانت عصر القواد والموظفين ذوي النفوذ المكلفين بتعمير الجزائر، لقد كانت متأكدة من إفلاس الاحتلال، ذلك أنه في حين كان لويس برتران (Louis bertrand) وأنصاره، بنزعة رومانسية، يستحضرون كل ما هو لاتيني مسيحي، كانت هي تُعيد، وبقوة القيم العربية الإسلامية، والتحام العالم العربي البربري"[6]، أما إدموند شارل رو (Edmonde Charles-Roux) رئيسة أكاديمية غونكور(Goncourt)، والتي تخصصت في

كتابات " إيزابيل إبرهارت"، فصرَّحت في حوار لجريدة ليبرتي(Liberté) الجزائرية قائلة: " صحيح، عملت لمدة اثنتي عشرة سنة على أعمال إيزابيل، ولكن شغفي ظل نفسه، كل المواضيع تنتهي يوماً ما إلى الملل واللامبالاة، غير أنّ الأمر مختلف بالنسبة إلى إيزابيل. الإعجاب دوماً عنيف كما في اليوم الأول"[7]، وقال عنها الأسترالي يان برينغل (Ian Pringle) الذي أخرج فيلما حول حياتها: " لقد كانت كلّ شيء: مهرجة، قديسة، بطلة حسية، إعصار أنثوي والذي من عمقه تتدفق الحياة بلا انتهاء، كاتبة مغامرة، ساذجة، ثائرة دوماً، مدفوعة بقوى لا تفهمها، قضت حياتها القصيرة وهي تحاول التخلص من الفائض لتواجه الواقع"[8] وتحدثت عنها كذلك، السيدة (Muriel BersetKohen (سفيرة سويسرا في الجزائر)، بمناسبة تنظيم ندوة حول الكاتبة بالجزائر، فتقول: "إيزابيل إبرهارت هي شخصية عصرية، حرة وجد مؤثرة، كانت مصدر قلق لأنها كانت ضد الاستعمار، ضد الظلم، كانت تتناقض مع القيم البورجوازية من خلال مواقفها "[9]. ترى من تكون هذه المرأة التي نالت حظاً وافراً من الإعجاب من طرف المفكرين؟ كما أنّ حياتها كان يشوبها الشك والريبة، لذلك سنحاول التعرف على سيرتها من خلال الصفحات الآتية، بالنظر إلى مختلف السير التي كتبت،* عاشت حياة التيه والترحال حتى وفاتها المفاجئ غرقاً إثر فيضانات عين الصفراء بالجنوب الغربي للجزائر، في 21 أكتوبر 1904م،.كانت حياتها دوماً بين المتناقضات، فمن الأراضي السويسرية، المتدفقة برداً، ودموعا نهاية ق 19م، إلى صحراء الجزائر الممتلئة حرارة وجمالاً وثورة، إلى الجنوب حيث الرمال الساخنة، والمرتفعات القاحلة، جاءت "إيزابيل إيبرهارت" أو "محمود السعدي"، كما كانت توقع قصصها وكل ما ترويه وتوثقه في كتاباتها.

2. نظرة إبرهارت إلى الآخر الجزائري:

1.2 رصد ووصف:

في الجزء الأخير من قصة تحت النير (Sous le joug) للكاتبة إبرهارت نقرأ أحداثاً مثيرة تتعلق بمقتل القائد الفرنسي والقبض على قاتله عبد القادر: " لما ملوا من الاستجوابات رغم ارتياحهم لما حدث، الأهالي رموا الجثة في التلة بترديدهم اسم عبدالقادر بصوت خافت، والجميع يهز رأسه كتأكيد للخبر"[10]. تتحدث الكاتبة في هذه القصة عن حادثة مقتل القائد الذي اختلف مع أحد جنوده والمسمى عبد القادر وكل ذلك كان بسبب تاسعديت، فالقائد حاول أن يغري المرأة المتعلقة بالصباحي عبد القادر، وبعد حدوث الجريمة اعترف سكان المنطقة على القاتل. " ألقي القبض على عبد القادر خمسة أيام بعد وقوع الجريمة،

بعد أن كاد يهلك من الجوع متشرداً في الكثبان الرملية، في زنزانته انتظر مدة خمسة أشهر مفترشاً الأرض ويديه مكبلة إلى الخلف بسلسلة موصولة بالحائط. كل ليلة كانت تأتي إلى السجن امرأة ضعيفة وشاحبةترتدي خرقا، تحمل معها خبزا مخمرا أو بعض الطعام البدوي الضئيل، لما كان الملازم روباح Robah الذي يخاف الله ويشفق على المسلمين رئيساً للمركز، كان الأكل يصل إلى زنزانة عبد القادر مع التحيات المليئة بالحب من تاسعديت، أما الأيام الأخرى فكان الحراس هم من يأكل ما تحمله تاسعديت من طعام وهم يضحكون." *صفات الصحفي التي ميزت إبرهارت هي سرعة بديهتها وأفكارها، وميلها إلى تجميع واستيعاب عدد كبير من الحقائق في مذكرة قصيرة، وهي الصفات التي تقرر صحة النص الذي يؤثر على القارئ وخاصة مشاعره، بالأوصاف مختصرة أقل حدة، كتبت إبرهارت متهمة النظام الاستعماري في الجزائر. فبهذه القرائن السياسية نجد أنّ إبرهارت تُعرف القارئ بالأهالي التي طالما تأثرت بهم، وفي النص المذكور سابقاً نلاحظ تذمرها مما يحدث داخل السجون، من معاملات غير إنسانية اتجاه الأهالي ومن خلال هاته الأحداث المروعة تنقل الكاتبة معلومات عن حياة سكان منطقة وادي سوف، وعن العلاقات الأساسية في هذه الأرض بين المُستعمِر والمُستَعْمَر، والتي تختلف عند الكاتبة عن الخط الكلاسيكي الفاصل والمعروف جيداً والذي يقسم العالم الاستعماري بين المواطنين الطيبين والغزاة العنيفين. إبرهارت المراسلة الصحفية للحرب في الجنوب الوهراني أبقت على علاقة طيبة مع "**الجنرال ليوتي**" Lyauty في عين الصفراء، وهذا ما ساعدها على إلقاء الضوء وإعطاء القارئ الصورة الكاملة والمعقدة للأوضاع في الأراضي الجزائرية وعلى الحدود الجزائرية المغربية في تلك الفترة العصيبة. فالنص المذكور يمدنا بمعلومات دقيقة حول حياة الأهالي، الأكل البسيط، اللباس الرث مقارنة باللباس الجميل الذي كان يرتديه "الصباحي عبد القادر" قبل دخوله السجن: " المعطف الأحمر والرداء الأبيض مع الرباط الأسود، أعطوا هيبة للغريب، الذي ترك انطباعاً جميلاً في فكر تاسعديت"[11]مع إبرهارت نكتشف العلاقات الأبوية في القبيلة البربرية، على سبيل المثال (في رواية تحت النير): "كانت تاسعديت تقوم كغيرها من أفراد الأسرة البدوية بالأعمال الشاقة، كعملها على مطحنة الحبوب الثقيلة، منتظرةً ساعة تزويجها دون أن تعير للأمر اهتماماً. الفرحة والنشوة سادت أجواء البيت بينما كان الخوف يملأ قلب تاسعديت، التي زُوجت لتاجر من الوادي عجوز لا تعرفه، في المساء أخذت النسوة العروس إلى غرفة وتركنها وحيدة من أجل الاغتصاب المشرع، أمام غريب مهمل وقبيح [...]. مرت أيام وشهور وتاسعديت تعيش في المدينة، في بيت كبير تهدم جزء منه وأصبح ركاماً، كانت رفيقتها الوحيدة هي والدة زوجها، امرأة عجوز صماء ومدللة، أحياناً لا تشعر بوجودها، البيت مفتوح على ساحة في الأمام، وفي الخلف غرف مهدمة تطل

على حي مهجور تملأه أكوام من الحطام والسكون."وهنا نجد أن وصف الفضاء يرمز للشخصية البطلة، فالفضاء الهندسي المتمثل في الآثار وشساعة المكان، يعبر عن فقدان للأمل من قبل البطلة وانهيارها المنبعث من المكانة الاجتماعية للمرأة في القبيلة البربرية، هذا الوصف لامرأة من "الأنديجان" بتفكير النسوة وسخطهن على واقعهن، وهذا لا يدهش القارئ الذي يعرف جرأة الكاتبة التي كانت تكتب عن كل شيء حتى عن حياتها الشخصية، بطريقة كتابتها الأدبية المستفزة للتعريف بحضورها المتميز في الأدب،" كما أنها عملت على تعويد القارئ على كلمات عربية وهذا ليس فقط لإعطاء اللون المحلي والحقيقة اللافتة أكثر لنصوصها، ولكن أيضا لانجاز مهمتها كوسيط أو مترجم للتعريف بالأنديجان أمام الأوروبيين، ولكنها كانت تملأ بطريقة لا شعورية ميولها وحبها لهذا البلد (تحقق واحدة من فرضيات الجزأرة)".

هذه الطريقة في الكتابة انتهجتها العديد من الكاتبات الفرنسيات اللواتي كتبن عن نساء الجزائر إبان الاستعمار وذلك في طريقة عرضهن للأحداث، إلا أن إبرهارت كانت أكثر ميلاً للأهالي وهذا ربما لأسباب شخصية من أهمها كونها أصبحت أقرب إلى هذه العوالم من غيرها، " إن ذلك يبين أنّ الكاتبات لسن موضوعيات بالقدر الذي يزعمنه، وأنّهن يحبذن إطلاق العنان لخيالهن وطرح أفكارهنّ الخاصة بدل الاكتفاء بالوصف المحايد للواقع "[12]. " وتعتبر الكاتبات رضا المرأة العربية المسلمة بوضعها العائلي والاجتماعي، وبكافة ظروف العيش المادية التي ألفتها، سلوكا سلبيا عليلا، واستسلاما لا إراديا ينم عن تخلف عقلي صارخ"[13] وهذه المواقف نجدها تتوافق مع موقف إبرهارت من النساء الجزائريات، فيمكن القول أن هذه الرؤية المتمثلة في تكيف الفرد مع وسطه ومع الظروف الاجتماعية السياسية القاهرة، المتمخضة عن الاستعمار، والتي لا يرجى تحسنها إلا من خلال انقلاب جذري للبنى الاستعمارية، سمة مرتبطة بالذهنية وسلوكا استسلاميا حتى النخاع ومتوقفا على الذات المُسْتعمَرة. " لقد أصبحت كتابات النساء اللاتي عملن بجانب الحركات القومية، والمعادية للاستعمار أو في داخلها أو ضدها، متوفرة بصورة متزايدة عند الباحثات، تلك الكتابات تساعدنا في فهم أنّ النقاش حول التراث والحداثة استهدف على وجه الخصوص، أولئك الذين تحدوا أو انتقدوا، الأساسيات الأبوية (البطريكية) للخطابات القومية "*[14].

نجد أيضا إدوارد سعيد يكتب عن المرأة المستعمَرة فيقول: " إنّ النساء يسكنّ في عالم يعاملهنّ كطبقة "دنيا"، وتمارس عليهن الثقافات السائدة نوعا من الإقصاء والحذف، وبذلك فإنّ جزءًمن جهة التسوية،

رفض الحجب عن تاريخ النساء- عن البشر والنصوص والأفعال التي تم كنسها وحجبها عن النظر"*.
في مقدمة للكتاب الثاني حول الأعمال الكاملة لإيزابيل إبرهارت والمعنونة بكتابات على الرمال لماري "**أوديل دي لاكور** "Marie-Odile Delacour و"**روني إيلو**" الذين كتبا: " أن تكون جزءا من اللوحة هي أن توفر الوسائل لوصف الأشياء من الداخل . خطوة راديكالية عندما يختار المرء العيش والإشارة إلى أولئك الناس الذين كان الاستعمار يرفضهم وأطلق عليهم اسم "الأنديجان". بتخلصها من الخلفيات إيزابيل إبرهارت نجحت بإعطاء صورة كاملة عن الكيان المُسْتَعْمِر والتي عايشته من خلال تجوالها، لقد وضحت الفوارق التي تقسم الغرب والشرق وأكثر من ذلك فإنها ذهبت إلى الأساسيات، جرأة إضافية بأن جعلت الفلاحين المحرومين من أراضيهم، الفيلقيين، المُدانين، النساء الباغيات، الصوفيين، والمجانين...،كل فئات المجتمع المهمشة أبطالاً لقصصها"[15]. فنجدها بخلاف "برترون" و"روندو" وظفت في قصصها العرب، فخالفت بذلك القاعدة التي كان يسير عليها أغلب روائيي الاستعمار، الذين جعلوا من الأهالي شيئا لا أهمية له في أحداث رواياتهم مثل ما فعل "برترون"، أو كشخصيات ثانوية بعكس المعَمرين الذين كانوا يتميزون بمكانة كبيرة في كتاباتهم، ونجد ذلك عند "روندو". إيزابيل إبرهارت أشركت الآخر العربي بكل مشاكله، وخضوعه لنظام ليس له، وهذه الظروف الصعبة كشفت الغيرية لأبطالها، ففي قصصها نجد لقاء العربي والأوروبي التي كانت تمثل إشكالية، ونقطة التلاقي بينهم لم تكن سهلة، ولا حتى البيئة التي جمعتهم كانت مخططة. " الدفاع عن المواطن يسير جنباً إلى جنب مع إبرهارت مع: قبولها للإسلام الذي يحفظها من العبودية الأوربية، غريزتها بدعم الرجل المتسابق والقدامى، يدفعها للعيش بعيدا عن الحالات الطارئة، طاعة لاحتجاجات الرؤية والشعور، إنها تحب الغموض، والغرابة، واللانهاية والوحدة الكبرى في الصحراء، غموضها دفعها للسير نحو الجنوب، حتى أنه كان لديها طموح غير عادي، أن تصبح مارابوت "[16].

احتكاكها بالأهالي مكنّها من التعرف عليهم جيدا، فتعاطفت معهم، رافقتهم وعاشت إلى جانبهم في كل الظروف، قضت جلّ وقتها وهي تحاول التعايش مع أوضاعهم الصعبة وفهم المعاملة التي كانت السلطات الاستعمارية تنتهجها إزاءهم، كل ذلك سبب استياء الكاتبة التي كانت تجد هذا ظلماً جائراً، وهذا واضح من خلال القصص التي كتبتها عن فئات مختلفة من السكان، فلكل فئة خصوصيته في تركيبة المجتمع الجزائري، بالإضافة إلى العادات والتقاليد التي حاولت أن توصل للقارئ بعضاً منها.

2.2 الإثنية، الأجناس والأعراق في الجزائر:

2-1-البدو:

في إحدى القصص التي كتبتها إبرهارت تحدثت فيها عن جماعة من البدو الرحل،الذين كانوا يترددون على شيخ الزاوية الذي كانت لديه سلطة عليهم، فهو يتمتع بمكانة كبيرة لدى السلطة الاستعمارية، فالبدو يحضرون ممثلين بقادة إلى الزاوية للتزود بالمال الذي يستثمرونه في تجارة المواشي، فينتقلون بين القبائل للبيع والشراء، ويكيد الواحد منهم المكائد ليصبح سيد القبيلة،"ويمنحه المسيحيون البرنس الأحمر الفاقع والنياشين"[17]. تقدم الكاتبة لوحة لثلاثة من هؤلاء البدو الذين حضروا يوما إلى الزاوية، هم ثلاثة من قادة "**ذوي منيع**"، وليس "**دوي منية** " كما كتبتها إبرهارت " **Doui-Menia** "، القبيلة التي يعود أصلها إلى الحاج مناع إحدى قبائل بني هلال العربية." أحدهم طاعن في السن، وجهه تقطعه تجاعيد كثيرة عميقة، دبغته الشمس فيبدو لونه ترابيا ولحيته بيضاء منتفشة، يلتف في حائك قديم من الصوف الرقيق، يحمل كومية(خنجرا معقوف النصل) مقبضها وغمدها من النحاس، الثاني مسن أيضا يلتف في برنس ويخفي سلاحه تحت ثيابه، يشبه مظهره الطير الجارح بأنفه المعقوف وفمه الأشرم، الثالث الأصغر سنا، طويل القامة مفتول العضلات، يرتدي تحت برنسه الثقيل ثيابا بيضاء، يشدّ كوميته ذات المقبض الذهبي المرصعة بخيوط مستوية، بل رقيق برتقالي من الحرير البنفسجي، حبل رقيق آخر يشد خرجا من الجلد الفلالي (نسبة إلى تافيلالا) الأحمر المزين بالطرز الفاسي المذهب، يحمل مسدسا رائعا، أخمُصه من الذهب المنقوش."[18]كان النقاش يدور بينهم وبين شيخ الزاوية حول المبلغ الذي يستلمونه منه لشراء الكباش والجمال من " بني ونيف"، الشيخ عرض عليهم مبلغا رأوه قليلا، رغبة منهم في هامش من الربح، لكن أمام إصرار الشيخ، ما كان عليهم سوى القبول و الإذعان." نهض البدو تصاحبهم طقطقات أسلحتهم، ثم إنهم استداروا لينظروا مرة أخرى وبحسرة إلى الدوروات الجميلة التي أعادها سي امحمد لعرج إلى الأكياس أين سقطت وهي ترن رنينا صافيا "*. كما أن الكاتبة ذكرت البدو في قصص عديدة، من بينها قصة المرآة le Miroir التي تحكي فيها عن شاب بدوي اسمه محمد فتذكر: " المخازني محمد من قبيلة دراقة شراقة لجيري فيل Géryville هو بدوي قوي البنية، بأكتاف عريضة مفتولة، وبشرة سمراء[...] يلبس قميصا وقندورة بيضاء مفتوحة دائما عند الرقبة والصدر، وبرنوس أزرق طويل للمخازنية، والعمامة البيضاء مشدودة بأحبال سوداء [...]، يتميز بأخلاق نبيلة وبزيه لمتطوع عسكري في الجنوب مرات يبدو كأنه قائدا أو آغا [...]، محمد هو القوال والمغني لأصدقائه في الفيلق، فخور بكيفية امتطائه للجواد..."[19]إبرهارت تتحدث في هذه القصة عن شخصية محمد البدوي، الذي يتمتع بهيبة وقوة جعلت كل أصدقاءه

يحبونه، أيضاً لكونه مرحاً وبشوشاً، وهذه الصفات الكثيرة ميزته عن غيره، وجعلته يعتز بنفسه، فكان دائم النظر في المرآة.

3. المغاربة والمزنطين:

أول جنس يصادفنا في نص الرحلة إنما هم المغاربة، أولئك الذين قدموا من الجنوب الشرقي للمغرب، بحكم التجاور، وقرب الجنوب الوهراني من المغرب. التقت الرحالة بهؤلاء أثناء استراحتها في مقهى من المقاهي العربية المبثوثة في مختلف المحطات على طول الطريق: " هؤلاء هم من قبيلة بني غويل من شط تيغري، كانوا بأثواب حمراء و نعال "*وهذا لما كانت تصف الموسيقيين العازفين بإحدى المقاهي، كما أنّ الرحالة شبّهتهم بموسيقيي الهضاب العليا الجزائريين.وهؤلاء المغاربة أجناس: فيهم مغاربة الشمال " وجوه ملتحية ملؤها الحيوية، سمات كثيرة مثيرة للإعجاب، ملامح متناسقة تنم عن الجد وأعين واسعة شرسة "[20].وفيهم أيضاً بعض البربر الذين يشبهون سكان بلاد القبائل: " لاحظت من بين هؤلاء العمال، بعض البربر الشقر عيونهم زرقاء، من الجنس الذي نصادفه في بلاد القبائل، والذي يعود من دون شك إلى دم جرماني قديم "[21]. تذكر الكاتبة أيضاً رجال الفيلق وتافيلالا، فتقول عنهم:"وحدهم الفقيون (Figuiguiens) وأهل تافيلالا احتفظوا بخرقهم العربية: عمال موسميون، ما إن يجنون بعض المال حتى يعودوا إلى قصورهم "[22]. أما "المزنطين" فهم الجزائريون العرب، وتعني "مزنط" أو"مزني" المرتد عن الدين، وفي رأي المغاربة فكل الجزائريين "مزنطين": "والواقع أنّ المغاربة يحتقرون الجزائريين الذين يعتبرونهم مارقين. ولربما يكره المغاربة المسلمين الجزائريين بشكل أعمق حتى من المسيحيين أنفسهم، لأنهم يعتقدون بأنّ الأولين ارتدّوا عن الإسلام، بينما ظل الآخرون على ما كانوا عليه، كفاراً "[23]. مرة خاطب شيخ الزاوية في القنادسة الرحالة قائلاً لها لما رغبت في التجول خارج القصر مرتدية ثياب الرجال الجزائريين، قال لها: "السي محمود، يا ابني، لا تتصور أي فكرة سيئة !إذا أردت الخروج فلا شيء يبقيك... لكن يتعين عليك إذن تغيير ثوبك. أنت تعلم بأنه يُنظر هنا إلى لباس الجزائريين نظرة سيّئة. وهو لا يمثل بالنسبة لك خطراً حقيقياً غير أنه سيجلب لك بعض المتاعب، وستنعت علناً بمزاني"*.وهكذا، فقد تحولت الكاتبة في ذلك المساء إلى مغربي من أجل الخروج، " فاستبدلت الزي الثقيل للصباحية بجلابية بيضاء خفيفة، ونعلين أصفرين يحتذيان في الأقدام العارية، وعمامة صغيرة من دون خمار لُفّت بشكل هالة حول شاشية "[24].

2.3 البربر الأمازيغ:

تمكن شيوخ الزوايا من التأثير في مختلف المؤسسات والتقاليد التي كانت عليها أجناس المنطقة، غير أنّ ذلك التأثير لم يكن بالقدر الكافي في البربر المتواجدين في المنطقة، فظلت "الجماعة" سيدة المواقف كلها، فهي التي تعين القائد كل القرارات السياسية والإدارية، وإذا ما كانت هناك حاجة إلى قائد فالجماعة هي من تعينه. " والقائد يطاع ما دام يحافظ على توليه غير أنه يبقى مسؤولاً دوماً أمام أولئك الذين اختاروه "[25].وتلك المجالس البربرية الصاخبة، تتحكم فيها الأهواء عادة، وهي عنيفة إذ تنتهي في بعض الأحيان بالدم المراق. " ومع ذلك يبقى البربر دوماً غيورين على حريتهم الجماعية. وهكذا فإنهم يدافعون عن أنفسهم ضد الاستبداد مزيحين أولئك الذين يجرؤون على الطموح إليه. وفي قنادسة انتصرت روح الحكم الديني العربية على الروح البربرية الجمهورية والكونفدرالية "[26]. كتبت إبرهارت عن هذه الوضعية وكيف أنّ الزاوية أصبحت هي ملاذ الناس، فقائد الزاوية هو السيد الوحيد الوارث للقصر وهو الذي لديه الكلمة الأخيرة وتتم العودة إليه في ما قضى به القاضي. " وكان التأثير الصوفي شديد العمق بقنادسة حتى أنّ البربر والحرطانيين نسوا لهجاتهم ولم يعودوا يستعملون إلا اللغة العربية. ولانت طباعهم أيضاً وأضحت أكثر تحضراً مقارنة بعادات باقي القصوريين، والخصومات وخاصة الشجارات نادرة، لأنّ الأهالي اكتسبوا عادة رفع كل خلافاتهم إلى الصوفيين الذين يهدئونهم ويفرضون عليهم تنازلات ودية "[27].وهنا تشرح الكاتبة كيف عاش الأمازيغ مع بقية الأهالي، وتحت سلطة رجال الدين، وهذا التآلف مع الآخرين جعلهم يتخلون عن لغتهم، وصاروا يستعملون اللغة العربية التي تعودوا عليها لأنها اللغة التي يفهمها كل الأهالي.

2-2- العبيد:

تقدم الرحالة في ثنايا نصها الرحلي تفصيلاً عن مجتمع العبيد، الذين يمثلون النسبة الغالبة من سكان قصر" القنادسة"، لذلك اهتمت الكاتبة بهم وخصتهم في قصة عنونتها ب **"العبيد"**، هؤلاء العبيد ينحدرون إما من القبائل الإفريقية، حيث بيع آباؤهم إلى البربر، أو هم من السودان، ضاعت لغتهم الأصلية بالتقادم ولم يعد يتكَّلمُها منهم سوى كبار السن منهم، شأنهم في ذلك شأن اللهجات الأمازيغية التي اجتاحتها عربية الشيوخ، فلم تعد هناك على الأقل في القصر لا الشلحية ولا الإفريقية.

تفرق الكاتبة بين جنسين من العبيد: الحراطين السود تسميهم (Kharatine)، والسودان:"ما دام دمهم نقياً، يبقى سودانيو الزاوية أقوياء البنية وفي أغلب الأحيان بهم وسامة عربية تماما، تتباين مع سواد بشرتهم

الأبنوسي. أما الذين ينحدرون من التهجين مع الخراطين فهم عكس ذلك نحيلون دميمون، أطرافهم نحيفة بلا تناسق وقسماتهم حادة."[28] يعيش هؤلاء العبيد حياة مزدوجة، فهم شبه أحرار، شبه عبيد: أحرار خارج الزاوية، عبيد داخلها، "يملكون مساكن في القصر وبساتين في غابات النخيل، وحتى قطعاناً صغيرة من الماشية، يبيعون الصوف واللحم والتمر لحسابهم، ولكنهم ملزمون بالعمل عند أسيادهم. حين يريدون الزواج، عليهم أن يطلبوا الترخيص من قائد الزاوية، ولكنهم أسياد في بيوتهم."* يتميز معظم هؤلاء بالاحترام الشديد الذي يبدونه تجاه سادتهم، فهم حريصون على إرضائهم، فهذا أحدهم " بَاحْمَدو" يجد في داخله كعبد سر الحركات الوقورة والمعاملات المحترمة" ففي كل مرة يقف فيها أمام المسلمين البيض يبدأ باحمدو، بالانحناء ثلاث مرات ولا يدنو إلا حافي القدمين، تاركا نعاله أمام الباب، ورغم ذلك يبقى أنّ فهمه لمعنى الاحترام لا ينقص من قيمته كإنسان "[29]، غير أن بعضهم لا يميزه هذا الخضوع، ولا يبدي الاحترام لسادته، بل لا يبديه حتى لأقرب المقربين من أهله. إنه الحرطاني الصغير "مسعود": " كثير الحركة مرن كالقط، لص وكاذب، ثرثار"[30]، إنه مثال العبد المحتال، كسول لدرجة لا توصف " لديه طريقة في تجاهل الأوامر تنم عن خبث حيواني [...] ينظر باحمدو إلى مسعود ساخطا: هذا طاعون أسود، ابن الحرام، هذه مصيبة، هذه كارثة "*. هذا المجتمع الذي يتواجد في أدنى مراتب القصوريين بدوره ينقسم إلى طبقات، فالعبيد يحتقر بعضهم بعضاً، الخادم في البيوت يرى نفسه أكبر شأناً من الخماس المزارع، "لا يحب مسعود أحدا، حتى بلال والده العجوز الخماس في بستان سيدي إبراهيم، حين يدخل العجوز بالصدفة إلى الباحة، يطرده مسعود بعنف متظاهرا باحتقار الخادم للمزارع الذي هو أقل منه رتبة."[31] الوصف الذي قدمته الكاتبة للعبيد يختلف على حسب العمل الذي يقدمه أياً منهم، فالخادم في البيوت يشعر أنه أفضل من العامل في البستان، كما أنها وصفت شخصية المسمى مسعود السيئة الذي لا يحسن إلى والده العجوز.

2-3- اليهود:

تصف إبرهارت يهود الجزائر في العديد من قصصها، فعلى سبيل المثال في قصة "**بني إسرائيل**" تحكي الكاتبة عن أحد أحياء قصر القنادسة والمسمى حي الملاح الذي يسكنه اليهود، فتذكر بأنهم كانوا يملكون دكاكين ضيقة تفتح إلى الشارع.وككل الذين وصفوا فئة اليهود، نجد كاتبتنا لم تخرج عن الصورة المألوفة لليهودي: " يختلف يهودي الجنوب عن العربي خاصة في وقاحته وسوقيته، ليس لديه أي فكرة عما نسميه

نحن المشاعر النبيلة، وهنا يكمن السر في قوة دهائه التجاري، حين يريد التكيف مع الوضع، فإنّ المشاعر الشخصية لا تثنيه عن ذلك "[32]. ذكرت الكاتبة أيضاً طريقة عيشهم: "يعيش بنو إسرائيل في ليل سرمدي، خاضعين تحت الحكم الإسلامي، ومحرومين، تماماً مثل الحرطانيين السود، من الحق في المشاركة في جماعات القصور، ومحكومين بالطاعة والصمت حتى لا يُزعَجوا ولا يُضطهدوا أبداً. "*الكاتبة تذكر لنا كذلك بأن جميع فئات المجتمع بما في ذلك العرب لا يحتملون اليهود، ولا يخالطونهم إلا في المعاملات التجارية: " يحتاج الراعي وقاطع الطريق إلى اليهودي ويساومانه بشراسة ولكن حين ينتهي وقت التجارة، لن تبقى بينهم أية مصلحة ولن يجمع بينهم أي شيء آخر "[33].

أما المرأة اليهودية فحظها أوفر من اليهودي، وحتى من بنات بلدها من المسلمات، ذلك أنهن متحررات من رقابة ذويهن: "هن أكثر جرأة، يقتربن من الرجال بكل حرية ويوزعن الغمزات المثيرة من خلف رموشهن المحمرة من دخان الجريد اليابس الغظ في دكاكين الملاح السوداء"*إنهن غير مباليات يتصرفن بطريقة تختلف عن المسلمات، فهن لسن حبيسات، ويثرثرن كثيرا أمام دكاكينهن، يطبخن وحتى أنهن يغتسلن أمام الجميع، ولكن رغم تحررهن لا تجد هؤلاء النسوة أي حظوة عند المسلمين وركزت الكاتبة كثيرا على هذه النقطة حين قالت: " رجل الجنوب يعتبر اليهودية نجسة، لا ينتبه البدو أبدا إلى بياض وجمال بنات الملاح "*.انتبهت إبرهارت إلى أنّ العرب الذين يجاورون اليهود لا يفكرون أبداً في الارتباط باليهوديات، فلا ينتبهون حتى إن كنّ جميلات أم لا.

2-4- العسكر:

لقد حضر العسكر كثيرا في نصوص رحّالتنا، فهم الأداة الأولى في تنفيذ مخططات الغزو والاستعمار، فنجد الكاتبة صورتهم بدقة في كتاباتها، هم أصناف مختلفة من الفرنسيين، جنود اللفيف الأجنبي، والجزائريون من رجال المخزن والصبايحية. فتصف إبرهارت جنود اللفيف الأجنبي بأنهم رجال شجعان، لا يتوانون عن خوض الحرب التي يخوضونها جريا وراء المال الذي يجمعونه، "رجال شقر، شديدوا السمرة، يكسوهم الغبار، يعودون من الجنوب [...] وهم ينشدون أغاني عاطفية ألمانية أو إيطالية."[34] لا تتوانى الرحالة عن التعاطف معهم، والإعجاب بهم و هذا لسبب أنّ أخواها كانا يوما ما ضمنهم، فهي تمدحهم حين تقول أنه بفضل هؤلاء العسكر تحولت القفار دورا مسكونة:" ليس هناك من حائط أو كوخ من الطوب في بشار أو في غيرها في هذه البلاد إلاّ وهو من عمل رجال اللفيف، عمل مجهول، عمل شاق يستحق التقدير أكثر من البطولات التي يقدمونها في كل يوم وفي كل مكان والتي لا

تجد أي صدى."[35] لما لا تتعاطف معهم الرحالة وهم الذين يصدون غارات قطاع الطرق (وهي تقصد بذلك المجاهدين أتباع بوعمامة) دفاعا عن أنفسهم، وكأنهم ينجزون عملاً مقدساً ونبيلاً، "[36] كان عليهم الدفاع عن أنفسهم من قطاع الطرق وبعد ليالي الترقب والقلق من المفاجآت".الكاتبة لم تخفي إعجابها لهؤلاء العسكر واحترامها الشديد لهم حين تقول: " في ذلك المساء بعد العشاء، شعرت في نفسي أنني أحد رفاق العسكر في الجنوب: اهتممت دون أن يجبرني أحد، بحكايات هؤلاء الناس الطيبين."[37] فئة أخرى من هؤلاء الجنود الأوروبيين، تتمثل في "المُقصين" من الجيش، تظهر إبرهارت اتجاههم امتعاضا شديدا، " يوظف هؤلاء في الأشغال العامة في المراكز النائية، كان البعض منهم عارياً حتى الحزام، همجية أخرى في هذه الأرض المتوحشة، كانوا يعرضون على أجسامهم وشوماً باريسية غير مألوفة، وأخرى تنم عن تشاؤم وتمرد وبذاءة "[38]. أما الفئة الأخيرة فهي دون شك فئة الجنود ذوو الأصول الجزائرية "رجال المخزن"، هؤلاء الذين " يضعون شجاعتهم وإقدامهم وصبرهم الذي لا ينفذ طواعية في خدمة فرنسا: يخدمون بإخلاص وهذا يكفيهم "*، هؤلاء الذين باعوا أنفسهم للمستعمر، يعاملون باحتقار فهم ينامون في أكواخ حقيرة، " على الأرض يضعون رؤوسهم على سروج أحصنتهم، بنادقهم في متناول أيديهم وأحزمة الخراطيش مثبتة حول قندوراتهم ترابية اللون... يضحكون ويمزحون، ويتغنون وهم ينتظرون الأمر بالرحيل."[39] تواصل الكاتبة الحديث عنهم، فهم لا يهتمون إن كانت رحلتهم هذه الأخيرة أم لا، لأنهم يثقون بالقدر، " وكل ما سيحدث لهم هو مكتوب لا مهرب منه مهما فعلوا. القدر ذلك الذي وضعهم تحت نير الاستعمار، قادر على تحريرهم منه، فلم لا يثقون فيه؟ هؤلاء المجندون طواعية يعرفون جيدا الشرق والرجولة، ويفضلون الموت شجعاناً أمام العدو''، العدو الذي تقصد به الكاتبة إخوتهم في الدين والوطن.

4. خاتمة:

إن هذه الكتابات كشفت عن تجربة حياة، ومنظومة قيم مجتمع ما، وعن توجهات الكاتبة"إيزابيل إبرهارت" وطبيعة اتصالها بالآخر المتمثل في الجزائر التي تعرّفت عليها وعلى أبنائها، فاطلعت على طبائع الجزائريين وعلى عاداتهم وتقاليدهم، وقيمهم فأحبتها ودافعت عنها.وقد عرضت الكاتبة العديد من خصوصيات المجتمع الجزائري، هذه الخصوصيات التي حمت أبناء الجزائر، فمنحتهم المناعة ضد الذوبان في الآخر، عاشت في الجزائر فترة طويلة وكتبت عنها، فقربها وصلتها بالسكان عاملان جعلا من الكاتبة تُبْدِع في الروبورتاج الاجتماعي، وأصبحت شخصية لا تضاهى في أدب الرحلة في بداية القرن

العشرين. بقيت إيزابيل إبرهارت مدة من الزمن غير معروفة من القراء والباحثين، لذلك أصبحت موضوع بحث لكثير من النقاد، كتاباتها غنية وتعطينا عدّة قراءات: اجتماعية، أنثروبولوجية ونفسية... وغيرها، وبمرور السنين أصبحت أعمالها وثائق ضرورية للقراء الذين يرغبون في معرفة ما كان عليه المجتمع الجزائري آنذاك، إنّ الصورة التي نقلتها إبرهارت عن الجزائر تبقى تمثل شهادة على قدر كبير من الأهمية في إلقاء الضوء على هذه الفترة من تاريخ الجزائر.

5. قائمة المراجع:

1. – الإسلام متوسطية: الإسلام في البحر الأبيض المتوسط
2. – الأنديجينا: هو مصطلح يقال عن الأهالي، أي السكن الأصليين، ظهر من خلال قانون سمي بقانون الأنديجينا سنة 1881
3. – مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، تر: عمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط2، 1984، ص 89.
4. – ديبلوماسي جزائري ووزير خارجية سابق.
5. – حسن داوس، ياسمينة وقصص أخرى، مقال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة إبداعات عالمية، ع 390، ط1، الكويت، 2012، ص 16.
6. – المرجع نفسه، ص 08.
7. – المرجع السابق، ص 08.
8. –Tamou Houcine, Isabelle Eberhardt, comme morée à Alger et El-oued, l'écrivain trait d'union entre l'Algérie et Genève, le soir d'Algérie, 06/12/2014, n 7348.
9. – أهم السير حول إيزابيل إبرهارت:

- Brahimi Denis, Requiem pour Isabelle, Paris, publisud ; coédité à Alger sous le titre L'oued et la Zaouia. Lectures d'Isabelle Eberhart, Paris, Grasset, 1983.
- Charles-Roux Edmonde, Nomade j'étais. Les années africaines d'Isabelle Eberhart (1899-1904), Grasset, 1995.
- Charles-Roux Edmonde, un Desir d'orient. La jeunesse d'Isabelle Eberhardt , Paris, Grasset, 1988.
- Delacour Marie et Huleu Nicolas, Sable. Le roman de la vie d'Isabelle Eberhardt, Paris, Liana Lévi, 1986.

10. - Isabelle Eberhardt, Au pays des sables, Les éditions du centenaire 1904-2004, Composées par Marie-Odile Delacour et Jean- René Huleu, Editions Joelle Losfeld, 2009, p 94
11. -Ibid, p 94.
12. -Ibid, p 80.
13. – سكينة مساعدي، روائيات الاستعمار و المرأة المستعمَرة في الجزائر(مساهمة في دراسة للأدب الاستعماري بالجزائر في النصف الأول من القرن العشرين)، ترجمة نادية الأزرق بن حدة، مراجعة عياش سلمان، موفم للنشر – الجزائر 2012، ص307 .

14. – المرجع نفسه، ص 308.
15. – أنيا لامبا: في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار ، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار، اللاذقية ، سوريا، 2010 ص 224.
16. – إدوارد سعيد: العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات الإتحاد الكتاب العربي، دمشق، ط01، 2007م، ص 125.
17. Isabelle Eberhardt, œuvres complètes, Ecrits sur le sable (nouvelles et roman), Edition et présentation par Marie-odile Delacour et Jean-René Huleu, tome1, Grasset, 1988,p 11 .
18. –voir : Maria Gubbinska, L'image de l'Autre dans la littérature Coloniale française au Maghreb, p 137.
19. - Sud Oranais, p 200.
20. - ibid, p199-200 .
21. - Ibid,p 202-203
22. - Isabelle Eberhardt, œuvres complètes 2 , Ecrits sur le sable (nouvelles et roman), édition établie, annotée et présentée par Marie-Odile Délacour et Jean-René Huleu, Grasset, 1990, p 21
23. –Isabelle Eberhardt, Sud Oranais, p 150.
24. -Ibid, p 160.
25. -Ibid, p 160.
26. ¯Ibid, p 160.
27. - Sud Oranais, p 184.
28. - Ibid, p 184.
29. - Ibid, p 184 – 185.
30. - Ibid, p 205.
31. -Ibid, p 205.
32. - Sud Oranais, p 206 – 207.
33. - Ibid, p 181.
34. - Ibid, p 182.
35. - Ibid, p 182.
36. - Ibid , p 203.
37. - Sud Oranais, p 204.
38. - Ibid, p 204.
39. - Isabelle Eberhardt, Notes de route, Maroc, Algérie, Tunisie, François Beurin, Editeur, paris, 2011, p193.